تفسير ابن كثير

يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلّم { قل } يا محمد { لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك } أي يا أيها الإنسان { كثرة الخبيث } يعني أن القليل الحلال النافع خير من الكثير الحرام الضار كما جاء في الحديث [ما قل وكفى خير مما كثر وألهى] وقال أبوالقاسم البغوي في معجمه : حدثنا أحمد بن زهير حدثنا الحوطي حدثنا محمد بن شعيب حدثنا معان بن رفاعة عن أبي عبد الملك علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري قال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا فقال النبي صلى الله عليه وسلّم [قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه] { فاتقوا الله يا أولي الألباب } أي يا ذوي العقول الصحيحة المستقيمة وتجنبوا الحرام ودعوه واقنعوا بالحلال واكتفوا به لعلكم تفلحون أي في الدنيا والاخرة .

ثم قال تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم } هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين ونهي لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها لأنها إن أظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءتهم وشق عليهم سماعها كما جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال [لا يبلغني أحد عن أحد شيئا إني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر] وقال البخاري : حدثنا منذر بن الوليد بن عبد الرحمن الجارودي حدثنا أبي حدثنا شعبة عن موسى بن أنس عن أنس بن مالك قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلّم خطبة ما سمعت مثلها قط وقال فيها [لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا] قال : فغطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم وجوههم لهم حنين فقال رجل : من أبي ؟ قال [فلان] فنزلت هذه الاية { لا تسألوا عن أشياء } رواه النضر وروح بن عبادة عن شعبة وقد رواه البخاري في غير هذا الموضع ومسلم وأحمد والترمذي والنسائي من طرق عن شعبة بن الحجاج به .

وقال ابن جرير : حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة في قوله { يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم } الاية قال : فحدثنا أن أنس بن مالك حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم سألوه حتى أحفوه بالمسألة فخرج عليهم ذات يوم فصعد المنبر فقال [لا تسألوني اليوم عن شيء إلا بينته لكم] فأشفق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم أن يكون بين يدي أمر قد حضر فجعلت لا ألتفت يمينا ولا شمالا إلا وجدت كلا لافا رأسه في ثوبه يبكي فأنشأ رجل كان يلاحي فيدعى إلى غير أبيه فقال : يا نبي الله من أبي ؟ قال [أبوك حذافة] قال : ثم قام عمر ـ أو قال : فأنشأ عمر ـ فقال : رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا

وبمحمد رسولا عائذا باﷲ ـ أو قال : أعوذ باﷲ من شر الفتن ـ قال : وقال رسول اﷲ صلى اﷲ عليه وسلّم [لم أر في الخير والشر كاليوم قط صورت لي الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط] أخرجاه من طريق سعيد ورواه معمر عن الزهري عن أنس بنحو ذلك أو قريبا منه قال الزهري : فقالت أم عبد اﷲ بن حذافة : ما رأيت ولدا أعق منك قط أكنت تأمن أن تكون أمك قد قارفت ما قارف أهل الجاهلية فتفضحها على رؤوس الناس ؟ فقال : واﷲ لو ألحقني بعبد أسود للحقته .

وقال ابن جرير أيضا : حدثنا الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا قيس عن أبي حصين عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : خرج رسول اﷲ صلى اﷲ عليه وسلّم وهو غضبان محمار وجهه حتى جلس على المنبر فقام إليه رجل فقال : أين أبي ؟ قال : [في النار] فقام آخر فقال : من أبي ؟ فقال [أبوك حذافة] فقام عمر بن الخطاب فقال : رضينا باﷲ ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى اﷲ عليه وسلّم نبيا وبالقرآن إماما إنا يا رسول اﷲ حديثو عهد بجاهلية وشرك واﷲ أعلم من آباؤنا قال : فسكن غضبه ونزلت هذه الاية { يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم } الاية إسناده جيد وقد ذكر هذه القصة مرسلة غير واحد من السلف منهم أسباط عن السدي أنه قال في قوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم } قال : غضب رسول اﷲ صلى اﷲ عليه وسلّم يوما من الأيام فقام خطيبا فقال [سلوني فإنكم لا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به] فقام إليه رجل من قريش من بني سهم يقال له عبد اﷲ بن حذافة وكان يطعن فيه فقال : يا رسول اﷲ من أبي ؟ فقال : أبوك فلان فدعاه لأبيه فقام إليه عمر بن الخطاب فقبل رجله وقال : يا رسول اﷲ رضينا باﷲ ربا وبك نبيا وبالإسلام دينا وبالقرآن إماما فاعف عنا عفا اﷲ عنك فلم يزل به حتى رضي فيومئذ قال [الولد للفراش وللعاهر الحجر] .

ثم قال البخاري : حدثنا الفضل بن سهل حدثنا أبو النضر حدثنا أبو خيثمة حدثنا أبو الجويرية عن ابن عباس Bهما قال : كان قوم يسألون رسول اﷲ صلى اﷲ عليه وسلّم استهزاء فيقول الرجل : من أبي ؟ ويقول الرجل تضل ناقته : أين ناقتي ؟ فأنزل اﷲ فيهم هذه الاية { يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم } حتى فرغ من الاية كلها تفرد به البخاري وقال الإمام أحمد : حدثنا منصور بن وردان الأسدي حدثنا علي بن عبد الأعلى عن أبيه عن أبي البختري وهو سعيد بن فيروز عن علي قال : لما نزلت هذه الاية { و ﷲ على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا } قالوا : يا رسول اﷲ أفي كل عام ؟ فسكت فقالوا : أفي كل عام ؟ فسكت قال : ثم قالوا : أفي كل عام ؟ فقال [لا] ولو قلت : نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم فأنزل اﷲ { يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم } الاية وكذا رواه الترمذي وابن ماجة من طريق منصور بن وردان به وقال الترمذي : غريب من

هذا الوجه وسمعت البخاري يقول : أبوالبختري لم يدرك عليا .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب حدثنا عبد الرحيم بن سليمان عن إبراهيم بن مسلم الهجري عن أبي عياض عن أبي هريرة قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم [إن ا كتب عليكم الحج] فقال رجل : أفي كل عام يا رسول ا ؟ فأعرض عنه حتى عاد مرتين أو ثلاثا فقال [من السائل ؟] فقال : فلان فقال [والذي نفسي بيده لو قلت : نعم لوجبت ولو وجبت عليكم ما أطقتموه ولو تركتموه لكفرتم] فأنزل ا D : { يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم } حتى ختم الاية ثم رواه ابن جرير من طريق الحسين بن واقد عن محمد بن زياد عن أبي هريرة وقال : فقام محصن الأسدي وفي رواية من هذه الطريق عكاشة بن محصن وهو أشبه وإبراهيم بن مسلم الهجري ضعيف .

وقال ابن جرير أيضا : حدثني زكريا بن يحيى بن أبان المصري حدثنا أبو يزيد عبد الرحمن أبي الغمر حدثنا ابن مطيع معاوية بن يحيى عن صفوان بن عمرو حدثني سليم بن عامر قال : سمعت أبا أمامة الباهلي يقول : قام رسول ا صلى ا عليه وسلّم في الناس فقال [كتب عليكم الحج] فقام رجل من الأعراب فقال : أفي كل عام ؟ قال : فغلق كلام رسول ا A وأسكت وأغضب واستغضب ومكث طويلا ثم تكلم فقال [من السائل ؟] فقال الأعرابي : أناذا فقال [ويحك ماذا يؤمنك أن أقول نعم ؟ وا لو قلت : نعم لو جبت ولو وجبت لكفرتم ألا إنه إنما أهلك الذين من قبلكم أئمة الحرج وا لو أني أحللت لكم جميع ما في الأرض وحرمت عليكم منها موضع خف لوقعتم فيه] قال : فأنزل ا عند ذلك { يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم } إلى آخر الاية في إسناده ضعف وظاهر الاية النهي عن السؤال عن الأشياء التي إذا علم بها الشخص ساءته فالأولى الإعراض عنها وتركها وما أحسن الحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال : حدثنا حجاج قال : سمعت إسرائيل بن يونس عن الوليد بن أبي هاشم مولى الهمداني عن زيد بن زائد عن عبد ا بن مسعود قال : قال رسول ا A لأصحابه [لا يبلغني أحد عن أحد شيئا فإني أحب أي أخرج إليكم وأنا سليم الصدر] الحديث وقد رواه أبو داود والترمذي من حديث إسرائيل قال أبو داود عن الوليد وقال الترمذي عن إسرائيل عن السدي عن الوليد بن أبي هاشم به ثم قال الترمذي : غريب من هذا الوجه .

وقوله تعالى : { وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم } أي وإن تسألوا عن هذه الأشياء التي نهيتم عن السؤال عنها حين ينزل الوحي على رسول ا A تبين لكم { وذلك على ا يسير } ثم قال { عفا ا عنها } أي عما كان منكم قبل ذلك { وا غفور حليم } وقيل : المراد بقوله { وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم } أي لا تسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها فلعله قد ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو تضييق وقد ورد في الحديث [أعظم المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته] ولكن إذا نزل القرآن

بها مجملة فسألتم عن بيانها تبيت لكم حينئذ لاحتياجكم إليها { عفا ا عنها } أي ما لم يذكره في كتابه فهو مما عفا عنه فاسكتوا أنتم عنها كما سكت عنها وفي الصحيح عن رسول ا A أنه قال [ذروني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم] وفي الحديث الصحيح أيضا [أن ا تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها] .

ثم قال تعالى : { قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين } أي قد سأل هذه المسائل المنهي عنها قوم من قبلكم فأجيبوا عنها ثم لم يؤمنوا بها فأصبحوا بها كافرين أي بسببها أي بينت لهم فلم ينتفعوا بها لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد بل على وجه الاستهزاء والعناد وقال العوفي : عن ابن عباس في الاية : أن رسول ا A أذن في الناس فقال [يا قوم كتب عليكم الحج] فقام رجل من بني أسد فقال : يا رسول ا أفي كل عام ؟ فأغضب رسول ا A غضبا شديدا فقال [والذي نفسي بيده لو قلت : نعم لوجبت ولو وجبت ما استطعتم وإذا لكفرتم فاتركوني ما تركتكم وإذا أمرتكم بشيء فافعلوا وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا عنه] فأنزل هذه الاية نهاهم أن يسألوا عن مثل الذي سألت عنه النصارى من المائدة فأصبحوا بها كافرين فنهى ا عن ذلك وقال : لا تسألوا عن أشياء إن نزل القرآن فيها بتغليظ ساءكم ذلك ولكن انتظروا فإذا نزل القرآن فإنكم لا تسألون عن شيء إلا وجدتم بيانه رواه ابن جرير .

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس { يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم } قال : لما نزلت آية الحج نادى النبي A في الناس فقال [يا أيها الناس إن ا قد كتب عليكم الحج فحجوا] فقالوا : يا رسول ا أعاما واحدا أم كل عام ؟ فقال [لا بل عاما واحدا ولو قلت : كل عام لوجبت ولو وجبت لكفرتم] ثم قال ا تعالى { يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء } إلى قوله { ثم أصبحوا بها كافرين } رواه ابن جرير وقال خصيف عن مجاهد عن ابن عباس { لا تسألوا عن أشياء } قال : هي البحيرة والوصيلة والسائبة والحام ألا ترى أنه قال بعدها { ما جعل ا من بحيرة } ولا كذا ولا كذا قال : وأما عكرمة فقال : إنهم كانوا يسألونه عن الايات فنهوا عن ذلك ثم قال { قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين } رواه ابن جرير يعني عكرمة C أن المراد من هذا النهي عن سؤال وقوع الايات كما سألت قريش أن يجري لهم أنهارا وأن يجعل لهم الصفا ذهبا وغير ذلك وكما سألت اليهود أن ينزل عليهم كتابا من السماء وقد قال ا تعالى : { وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا } وقال تعالى : { وأقسموا با جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند ا وما يشعركم أنها إذا

جاءت لا يؤمنون * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون * ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء ا ولكن أكثرهم يجهلون }